

المقرر الحادي عشر

شَرْحُ حَدِيثِ

«مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ»

للإمام العلامة

أبي الفرج عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي

(ت ٧٩٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[قال الشيخ الإمام العالم العلامة، شيخ الإسلام، بقیة السلفِ الكرام،
زین الدین أبو الفرج عبد الرحمن بنُ الشيخ الإمام شهاب الدین أحمد بن
الشيخ الإمام العالم العلامة رجب البغدادي الحنبلي، زاده الله علماً وعملاً:]

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

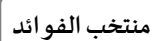
خرَّج الإمام أحمد والنسائي والترمذي وابن حبان في «صحيحه» من
حديث كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلی الله علیه وسلم قال:

«مَا ذُئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ
وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ».

قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ.

وروي من وجه آخر عن النبي صلی الله علیه وسلم من حديث ابن عمر، وابن عباس،
وأبي هريرة، وأسامة بن زيد، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وعاصم بن عدي
الأنصاري رضي الله عنه.

وقد ذكرتها كلها مع الكلام عليها في كتاب «شرح الترمذي».



۳ ۴ ۲

ولفظُ حديث جابر: «مَا ذَيْبَانِ ضَارِيَانِ بَاتَا فِي غَنَمٍ غَابَ رِعَاؤُهَا بِأَفْسَادٍ مِنَ التَّمَاسِ الشَّرَفِ وَالْمَالِ لِدِينِ الْمُؤْمِنِ» .

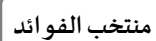
وفي حديث ابن عَبَّاسٍ: «حُبُّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ» بَدَلُ «الْحَرَصِ» .

فهذا مثْلٌ عَظِيمٌ جَدًّا ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِفَسَادِ دِينِ الْمُسْلِمِ بِالْحَرَصِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّ فُسَادَ الدِّينِ بِذَلِكَ لَيْسَ بِدُونِ فُسَادِ الْغَنَمِ بِذَيْبَيْنِ جَائِعَيْنِ ضَارِيَيْنِ بَاتَا فِي الْغَنَمِ، وَقَدْ غَابَ عَنْهَا رِعَاؤُهَا لَيْلًا، فَهَمَا يَأْكُلَانِ فِي الْغَنَمِ وَيَفْتَرِسَانِ فِيهَا .

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَنْجُو مِنَ الْغَنَمِ مِنْ إِفْسَادِ الذَّيْبَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ وَالْحَالَةِ هَذِهِ إِلَّا قَلِيلٌ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ حَرَصَ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لَيْسَ إِفْسَادُهُ لِدِينِهِ بِأَقْلَ مِنْ إِفْسَادِ هَذَيْنِ الذَّيْبَيْنِ لِهَذِهِ الْغَنَمِ؛ بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَسَاوِيًّا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَزِيدًا، يَشِيرُ إِلَى أَنَّهُ لَا يَسْلُمُ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِ مَعَ حَرَصِهِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْقَلِيلُ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَسْلُمُ مِنَ الْغَنَمِ مَعَ إِفْسَادِ الذَّيْبَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ فِيهَا إِلَّا الْقَلِيلُ .

فهذا المثلُ العَظِيمُ يَتَضَمَّنُ غَايَةَ التَّحْذِيرِ مِنْ شَرِّ الْحَرَصِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي الدُّنْيَا .





۳۴۴

[الحرص على المال نوعان]

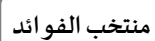
فأما الحرص على المال فهو نوعان:

❁ أحدهما: شدة محبة المال مع شدة طلبه من وجوهه المباحة ، والمبالغة في طلبه ، والجِدُّ في تحصيله واكتسابه من وجوهه مع الجُهد والمشقة .

وقد وردَ أنَّ سببَ الحديث كان وقوعَ بعض أفرادِ هذا النوع ، كما خرَّجه الطبرانيُّ من حديثِ عاصم بن عديٍّ ، قال : اشتريتُ مائةَ سهمٍ من سهامِ خبيرٍ ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقالَ : «مَا ذئبانِ ضاريانِ ظلاً في غنمٍ أضاعَهَا ربُّها بأفْسَدَ من طلبِ المسلمِ المالَ والشَّرَفَ لدينه» .

قلتُ: ولو لم يكنْ في الحرصِ على المالِ إلَّا تضييعُ العُمُرِ الشَّريفِ الَّذي لا قيمةَ له ، وقد كان يمكنُ صاحبه فيه اكتسابَ درجاتِ الخيرِ ، ولو فعلَ فاز بالعلی والنعيمِ المقيمِ ، فضيَّعَه بالحرصِ في طلبِ رزقٍ مضمونٍ ، مقسومٍ لا يأتي منه إلَّا ما قُدِّرَ وقُسمَ ، ثم لا ينتفعُ به ؛ بل يتركُه لغيره ويرتحلُ عنه ، فيبقى حسابُه عليه ونفعُه لغيره ، فيجمعُ لمن لا يحمدهُ ، ويُقدِّمُ على من لا يعذره = لكفى بذلك ذمًّا للحرصِ .

فالحريصُ يضيِّعُ زمانه الشريفَ ، ويخاطرُ بنفسه التي لا قيمةَ لها في الأسفارِ وركوبِ الأخطارِ ؛ لجمعِ مالٍ ينتفعُ به غيره .



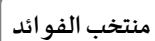
۳۴۶

كما قيل :

وَمَنْ يَنْفَقِ الْأَيَّامَ فِي جَمْعِ مَالِهِ ❁ مُخَافَةً فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ
وَلَا تَحْسِبَنَّ الْفَقْرَ فَقْرًا مِنَ الْغِنَى ❁ وَلَكِنَّ فَقْرَ الدِّينِ حَقًّا هُوَ الْفَقْرُ
قِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: إِنَّ فَلَانًا جَمَعَ مَالًا، فَقَالَ: فَهَلْ جَمَعَ أَيَّامًا يَنْفَقُهُ
فِيهَا؟ قِيلَ: لَا، قَالَ: مَا جَمَعَ شَيْئًا.

وفي بعض الآثار الإسرائيلية: الرزق مقسومٌ والحريصٌ محرومٌ.
ابن آدمَ، إِذَا أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا، فَمَتَى تَطْلُبُ الْآخِرَةَ؟!
يَا جَامِعًا مَانِعًا وَالدَّهْرُ يَرْمُقُهُ ❁ مَفَكَّرًا أَيَّ بَابٍ مِنْهُ يَغْلُقُهُ
جَمَعْتَ مَالًا فَفَكَّرْ هَلْ جَمَعْتَ لَهُ ❁ يَا جَامِعَ الْمَالِ أَيَّامًا تَفَرِّقُهُ
الْمَالُ عِنْدَكَ مَخْزُونٌ لَوَارِثِهِ ❁ مَا الْمَالُ مَالُكَ إِلَّا يَوْمَ تَنْفَقُهُ
إِنَّ الْقَنَاعَةَ مَنْ يَحْلُلُ بِسَاحَتِهَا ❁ لَمْ يَلْقَ فِي ظِلِّهَا هَمًّا يُورِّقُهُ
قال ابن مسعود: اليقينُ ألا تُرْضِيَ النَّاسَ بِسُخْطِ اللَّهِ، وَلَا تَحْسُدَ أَحَدًا
عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَلَا تَلُمَّ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، فَإِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَسُوقُهُ
حَرَصٌ حَرِيصٍ وَلَا يَرُدُّهُ كِرَاهَةٌ كَارِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ بِقِسْطِهِ وَعَدْلِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرْحَ
فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ.

ومن كلام بعض السلف: إِذَا كَانَ الْقَدْرُ حَقًّا فَالْحَرَصُ بَاطِلٌ، وَإِذَا كَانَ
الْغَدْرُ فِي النَّاسِ طِبَاعًا فَالثَّقَةُ بِكُلِّ أَحَدٍ عَجْزٌ، وَإِذَا كَانَ الْمَوْتُ لِكُلِّ أَحَدٍ



۳ ۴ ۵

راصدًا فالطمأنينةُ إِلَى الدُّنْيَا حُمُقٌ .

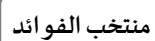
كان عبدُ الواحد بنُ زيدٍ يحلفُ بالله: لَحَرَصُ المرءِ عَلَى الدُّنْيَا أَخُوْفُ عليه عندي من أعدى أعدائه .

وكان يقولُ: يا إخوتاه! لا تغبطوا حريصاً عَلَى ثروة ولا سَعَةٍ في مَكْسَبٍ ولا مالٍ ، وانظروا إِلَيْهِ بعين الرحمةِ له في اشتغاله اليومَ بما يُرديه غداً في المعاد . ثُمَّ يبيكي ويقولُ: الحرصُ حرصانٍ: فحرصٌ فاجعٌ ، وحرصٌ نافعٌ ، فأما النَّافعُ: فحرصُ المرءِ عَلَى طاعةِ الله ، وأما الفاجعُ: فحرصُ المرءِ عَلَى الدُّنْيَا ، فالحرصُ عَلَى الدنيا معذبٌ ، صاحبه مشغولٌ ، لا يُسَرُّ ولا يَلدُّ بجمعه لشُغله ، ولا يفرُّغُ من محبته الدُّنْيَا لآخرته ، كذاً كذاً لما يفنى ، وغفلته عما يدومُ ويبقى .

وَأَنشَدَ بَعْضُهُمْ في هذا المعنى:

لا تغِبطَنَّ أخا حرصٍ عَلَى سَعَةٍ ❁ وانظُرْ إِلَيْهِ بعينِ الماقتِ القالي
إِنَّ الحَريصَ لَمَشغولٌ بِشَقْوَتِهِ ❁ عن السُّرورِ بما يحوي من المالِ
وكتبَ بعضُ الحكماءِ إِلَى أخٍ له كان حريصاً عَلَى الدُّنْيَا: أما بعد ؛ فَإِنَّكَ
أصبحتَ تخدمُ الدنيا ، وهي تزجُّرك عن نَفْسِها بالإعراضِ والأمراضِ والآفاتِ
والعللِ ، كَأَنَّكَ لم تَرَ حريصاً محروماً ، وزاهداً مرزوقاً ، ولا ميتاً عن كثيرٍ ، ولا
متبلاً مِنَ الدُّنْيَا باليسيرِ .

عَاتَبَ أعرابيٌّ أَخاهَ عَلَى الحرصِ ، فَقَالَ له: يا أَخِي ، أنتَ طالبٌ
ومطلوبٌ ، يطلبُكَ مَنْ لا تفوتهُ ، وتطلبُ أَنْتَ ما قد كُفِيَتْه ، كَأَنَّكَ يا أَخِي لم تَرَ



३०.

حريصاً محروماً وزاهداً مرزوقاً.

وقال بعضُ الحكماء: أطولُ النَّاسِ غَمًّا الحسودُ، وأهنؤُهُم عيشاً القنوعُ،
وأصبرُهُم عَلَى الأذى الحريصُ، وأخفُضُهُم عيشاً أرفضُهُم للدنيا، وأعظمُهُم
ندامةً العالمُ المفرطُ.

ولبعضِهِم في هذا المعنى:

الحرصُ داءٌ قد أضُرَّ ❁ رَ بَمَن تَرى إِلَّا قليلاً
كَم مِن عَزِيزٍ قد رَأى ❁ تَ الحَرَصَ صَيَّرَهُ ذليلاً
ولغيره:

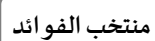
كَم إِلَى كَم أنتَ للحر ❁ صِ والأَمَانِي عَبْدُ
لَيْسَ يُجِدِي الحَرَصُ والسَّعْدُ ❁ يِ إِذَا لَمْ يَكُ جِدُّ
مَا لِمَا قَدَّرَهُ الـ ❁ لَهُ مِنَ الأَمْرِ بُدُّ

ولأبي العتاهية يخاطب سلماً الخاسر:

تعالى الله يا سلمُ بنَ عَمْرٍو ❁ أَذَلَّ الحَرَصُ أعناقَ الرجالِ
ومن كلامِ المأمونِ: الحَرَصُ مفسدةٌ للدينِ والمروءةِ.

وأنشد بعضهم:

حَرَصُ الحَرِيسِ جنونُ ❁ والصَّبرُ حصنٌ حصينُ
إِنْ قَدَّرَ اللهُ شَيْئاً ❁ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ

[illegible]

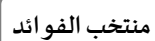
وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ:

حَتَّى مَتَى أَنَا فِي حِلٍّ وَتَرَحَالٍ ❁ وَطَوَّلِ سَعْيٍ وَإِدْبَارٍ وَإِقْبَالٍ
وَنَازَحِ الدَّارِ لَا أَنْفُكَ مُغْتَرِبًا ❁ عَنِ الْأَحْبَةِ لَا يَدْرُونَ مَا حَالِي
بِمَشْرِقِ الْأَرْضِ طَوْرًا ثُمَّ مَغْرِبِهَا ❁ لَا يَخْطُرُ الْمَوْتُ مِنْ حَرْصِي عَلَى بَالِي
وَلَوْ قَنَعْتُ أَتَانِي الرِّزْقُ فِي دَعَةٍ ❁ إِنَّ الْقُنُوعَ الْغَنَى لَا كَثْرَةُ الْمَالِ

وَلِمَحْمُودِ الْوَرَّاقِ:

أَيُّهَا الْمَتَعِبُ جُهِدًا نَفْسَهُ ❁ يَطْلُبُ الدُّنْيَا حَرِيصًا جَاهِدًا
لَا لَكَ الدُّنْيَا وَلَا أَنْتَ لَهَا ❁ فَاجْعَلِ الْهَمَّينِ هَمًّا وَاحِدًا



This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

[النَّوعُ الثَّانِي مِنَ الْحَرَصِ عَلَى الْمَالِ وَتَطَلُّبِهِ مِنَ الْوُجُوهِ الْمُحَرَّمَاتِ]

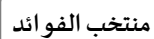
النَّوعُ الثَّانِي مِنَ الْحَرَصِ عَلَى الْمَالِ:

أن يزيدَ عَلَى ما سبق ذكرُهُ في النوعِ الأول ، حتى يطلبَ المالَ من الوجوه المحرمة ويمنعَ حقوقَه الواجبة ، فهذا من الشُّحِّ المذموم ، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَوِّقْ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] .

وفي «سنن أبي داود» عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: «اتَّقُوا الشُّحَّ ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، أَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْبَخْلِ فَبَخِلُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْفَجْرِ فَفَجَرُوا» .

وفي «صحيح مسلم» عن جابرٍ عن النبي ﷺ قال: «اتَّقُوا الشُّحَّ ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» .



This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

[الشُّح]

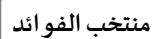
قال طائفةٌ من العُلَمَاء: الشُّحُّ هو الحرصُ الشديدُ الَّذِي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياءَ من غير حِلِّها ويمنعها من حقوقها.

وحقيقته: شَرُّه النَّفْسُ إِلَى ما حَرَّمَ الله وَمَنَعَ منه ، وأن لا يقنع الإنسانُ بما أحلَّ الله له من مالٍ أو فرجٍ أو غيرهما ، فإن الله تعالى أحلَّ لنا الطيبات من المطاعم والمشارب ، والملابس والمناكح ، وأباح تناولها لنا من وجوه حِلِّها ، وأباح لنا دماء الكفار المحاربين وأموالهم ، وحَرَّمَ علينا ما عدا ذلك من الخبائث من المطاعم والمشارب ، والمناكح ، وحَرَّمَ علينا تناول هذه الأشياء من غير وجوه حِلِّها ، وحَرَّمَ علينا أخذ الأموال وسفك الدماء بغير حِلِّها ، فمن اقتصر على ما أبيح له من ذلك فهو مؤمنٌ ، ومن تعدَّى ذلك إلى ما منع الله منه فهو الشُّحُّ المذمومُ ، وهو منافٍ للإيمان ، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن الشُّحَّ يأمرُ بالقطيعةِ وبالفجورِ وبالبخلِ .

والبُّخل: هو إمساكُ الإنسان ما في يده .

والشُّحُّ: تناول ما ليس له ظلمًا وعدوانًا من مالٍ أو غيره ، حتَّى قيل: إنَّ المعاصيَ كُلَّها من الشُّح ، وبهذا فسَّر ابنُ مسعودٍ وغيره من السَّلفِ الشُّحَّ والبخلَ .

ومن هنا يُعَلَّمُ معنى حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: «لا يجتمعُ الشُّحُّ والإيمانُ في قلبٍ مؤمنٍ» .



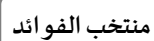
३०८

والحديثُ الآخرُ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ: الصَّبْرُ
وَالسَّمَاحَةُ».

وَفُسِّرَ الصَّبْرُ بِالصَّبْرِ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالسَّمَاحَةُ بِأَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ .
وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الشَّحُّ بِمَعْنَى الْبَخْلِ وَبِالْعَكْسِ، لَكِنَّ الْأَصْلَ هُوَ التَّفْرِيقُ
بَيْنَهُمَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا.

وَمَتَى وَصَلَ الْحَرَصُ عَلَى الْمَالِ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ، نَقَصَ بِذَلِكَ الدِّينُ
وَالْإِيمَانُ نَقْصًا بَيِّنًا؛ فَإِنَّ مَنَعَ الْوَاجِبَاتِ وَتَنَاوَلَ الْمَحْرَمَاتِ يَنْقُصُ بِهِمَا الدِّينُ
وَالْإِيمَانُ بِلَا رَيْبٍ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْقَلِيلُ جَدًّا.



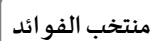
This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

[الحرص على الشرف والجاه]

فصل

وَأَمَّا حَرَصُ الْمَرْءِ عَلَى الشَّرَفِ فَهُوَ أَشَدُّ إِهْلَاكًا مِنْ الْحَرَصِ عَلَى الْمَالِ ،
 فَإِنَّ طَلَبَ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالرَّفْعَةَ فِيهَا وَالرِّيَاسَةَ عَلَى النَّاسِ وَالْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ =
 أَضُرُّ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ طَلَبِ الْمَالِ ، وَضُرُّهُ أَعْظَمُ ، وَالزَّهْدُ فِيهِ أَصْعَبُ ، فَإِنَّ
 الْمَالَ يُبْذَلُ فِي طَلَبِ الرِّيَاسَةِ وَالشَّرَفِ .



This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

[طلب الشرف بالدنيا]

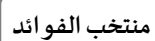
والحرصُ عَلَى الشَّرَفِ قسمان:

❁ أَحَدُهُما: طلبُ الشَّرَفِ بِالْوِلَايَةِ وَالسُّلْطَانِ وَالْمَالِ.

وهذا خطرٌ جدًّا، وهو في الغالبِ يَمْنَعُ خَيْرَ الآخِرَةِ، وَشَرَفَهَا، وَكَرَامَتَهَا،
وَعَزَّهَا.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا
فَسَادًا وَالْعِزَّةَ لِمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].





۳۶۴

[النهي عن طلب الإمارة]

وقلَّ مَنْ حَرَصَ عَلَى رِياسَةِ الدُّنْيَا بَطَلَِبِ الْوِلايَاتِ أَنْ يُوفَّقَ ؛ بَلْ يُوَكَّلُ إِلَى نَفْسِهِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمْرَةَ : « يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ ! لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِّلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا » .

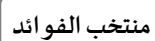
قال بعضُ السَّلفِ : ما حَرَصَ أَحَدٌ عَلَى وِلايَةٍ فَعَدَلَ فِيهَا .

وكان يزيدُ بنُ عبد الله بنِ وهبٍ من قضاةِ العدلِ والصَّالحينَ ، وكان يقولُ : مَنْ أَحَبَّ الْمَالَ وَالشَّرَفَ وَخَافَ الدَّوَائِرَ = لَمْ يَعْدَلْ .

وفي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : «إِنَّكُمْ سَتَحَرِّصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَنَعَمَ الْمَرْضِعَةُ ، وَبُسَّتِ الْفَاطِمَةُ » .

وفيه - أيضاً - عن أبي موسى الأشعريَّ أَنَّ رَجُلَيْنِ قالا لِلنَّبِيِّ ﷺ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَرْنَا ، قال : «إِنَّا لَا نُوَلِّي أَمْرًا هَذَا مِنْ سَأَلِهِ ، وَلَا مَنْ حَرَصَ عَلَيْهِ» .

واعلم أَنَّ الْحَرَصَ عَلَى الشَّرَفِ يَسْتَلْزِمُ شَرًّا عَظِيمًا قَبْلَ وَقْعِهِ بِالسَّعْيِ فِي أَسْبَابِهِ ، وَبَعْدَ وَقْعِهِ بِالخَطَرِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ صَاحِبُ الْوِلايَةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالتَّكَبُّرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَفاسِدِ .

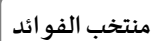
This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

[من أوصاف عالمِ السوء]

وقد صنّف أبو بكر الأَجْرِيُّ - وكان من العُلَمَاءِ الرَّبَّانِيَّينِ في أوائلِ المائَةِ الرابعة - مصنّفًا في أخلاقِ العُلَمَاءِ وآدابِهِمْ ، وهو من أَجَلِّ ما صُنِّفَ في ذلك ، ومَن تأمَّله عِلِمَ منه طريقةَ السَّلَفِ من العُلَمَاءِ ، والطرائقَ التي حَدَّثَتْ بعدهم المخالفةَ لطريقتهم ، فوصفَ فيه عالمَ السوءِ بأوصافٍ طويلة .

منها أَنَّهُ قال: قد فتنه حُبُّ المالِ والشَّرَفِ والمنزلةِ عند أهلِ الدُّنْيَا ، يتجملُ بالعلمِ كما يتجملُ بالحُلَّةِ الحسناءِ للدنيا ، ولا يجملُ علمه بالعملِ به .

وذكر كلامًا طويلًا إِلَى أن قال: فهذه الأخلاقُ وما يشبُّهها تغلبُ عَلَى قلبِ مَنْ لم ينتفعْ بالعلمِ ، فبينا هو مُقَارِنُ لهذه الأخلاقِ إِذ رَغَبَتْهُ نَفْسُهُ في حُبِّ الشَّرَفِ والمنزلةِ ، فأحبَّ مجالسةَ الملوكِ وأبناءِ الدُّنْيَا ، فأحبَّ أن يشاركهم فيما هُم فيه مِنْ رَخِيٍّ عَيْشِهِمْ ، مِنْ منزلٍ بهيٍّ ، ومَرَكِبٍ هنيئٍ ، وخادمٍ سريٍّ ، ولباسٍ لَيِّنٍ ، وفراشٍ ناعمٍ ، وطعامٍ شهِيٍّ ، وأحبَّ أن يُغَشَى بابُهُ ، وأن يُسْمَعَ قَوْلُهُ ، ويُطَاعَ أَمْرُهُ ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ جهةِ الْقَضَاءِ فَطَلَبَهُ ، فَلَمْ يُمْكِنْهُ إِلَّا بِبَذْلِ دِينِهِ ، فَتَذَلَّلَ لِلْمُلُوكِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، فَخَدَمَهُمْ بِنَفْسِهِ ، وَأَكْرَمَهُمْ بِمَالِهِ ، وَسَكَتَ عَنْ قَبِيحِ مَا ظَهَرَ مِنْ مناكِرِهِمْ عَلَى أبوابِهِمْ ، وفي منازلِهِمْ ، وَمِنْ قولِهِمْ وفعلِهِمْ ، ثم زَيْنَ لَهُمْ كثيرًا مِنْ قَبِيحِ أفعالِهِمْ بتأويلِهِ الخُطَأَ ؛ لِيَحْسُنَ موقعَهُ عندهم ، فَلَمَّا فَعَلَ هذا مُدَّةً طَوِيلَةً ، واستَحْكَمَ فيه الفسادُ = وَلَوْهُ الْقَضَاءُ فذُبِحَ بِغَيْرِ سَكِينٍ ،

This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

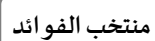
فصارت لهُم عليه مِنَّةٌ عَظِيمَةٌ، ووجبَ عليه شُكْرُهُم، فألْزَمَ نَفْسَهُ ذلك؛ لئلا يُغْضِبَهُم عليه فَيَعزِلُوهُ عن القِضاءِ، ولم يَلْتَفِتْ إِلَى غَضَبِ مَوَلَاهُ، فاقْتَطَعَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ، وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَأَمْوَالَ الْوَقْفِ عَلَى الْمَجَاهِدِينَ، وَأَهْلِ الشَّرَفِ، وَبِالْحَرَمِينَ، وَأَمْوَالاً يَعُودُ نَفْعُهَا عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَرْضَى بِهَا الْكَاتِبَ وَالْحَاجِبَ وَالْخَادِمَ، فَأَكَلَ الْحَرَامَ وَأَطْعَمَ الْحَرَامَ وَكَثَّرَ الدَّاعِيَ عَلَيْهِ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَوْرَثَهُ عِلْمُهُ هَذِهِ الْأَخْلَاقَ.

هَذَا الْعِلْمُ الَّذِي اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَمَرَ أَنْ يُسْتَعَاذَ مِنْهُ، وَهَذَا الْعَالَمُ الَّذِي قَالَ فِيهِ ﷺ: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ».

وَكَانَ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ».

وَكَانَ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ».

هَذَا كُلُّهُ كَلَامُ الْإِمَامِ أَبِي بَكْرٍ الْآجُرِّيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَكَانَ فِي أَوَائِلِ الثَّلَاثِمِائَةِ، وَلَمْ يَزَلِ الْفَسَادُ بَعْدَهُ يَتَزَايِدُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

ومن دَقِيقِ آفَاتِ حُبِّ الشَّرَفِ: طَلَبُ الْوَلَايَاتِ وَالْحَرَصُ عَلَيْهَا، وَهُوَ بَابٌ غَامِضٌ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الْعُلَمَاءُ بِاللَّهِ، الْعَارِفُونَ بِهِ الْمُحِبُّونَ لَهُ، الَّذِينَ يَغَارُونَ لَهُ مِنْ جَهَالَةِ خَلْقِهِ الْمُزَاحِمِينَ لِرُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، مَعَ حَقَارَتِهِمْ وَسَقَطِ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَعِنْدَ خَوَاصِّ عِبَادِهِ الْعَارِفِينَ بِهِ.

كما كَانَ الْحَسَنُ رضي الله عنه يَقُولُ فِيهِمْ: إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقَقَتْ بِهِمُ الْبَغَالُ وَهَمَلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَعْصِيَةَ فِي رِقَابِهِمْ، أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ حُبَّ الشَّرَفِ بِالْحَرَصِ عَلَى نَفُوذِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَتَدْبِيرِ أُمُورِ النَّاسِ، إِذَا قَصَدَ بِذَلِكَ مُجَرَّدَ عُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ عَلَى الْخَلْقِ وَالتَّعَاضُطِ عَلَيْهِمْ، وَإِظْهَارِ صَاحِبِ هَذَا الشَّرَفِ حَاجَةَ النَّاسِ إِلَيْهِ وَافْتِقَارَهُمْ إِلَيْهِ، وَذَلَّلَهُمْ لَهُ فِي طَلَبِ حَوَائِجِهِمْ مِنْهُ، فَهَذَا نَفْسُهُ مُزَاحِمَةٌ لِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَهِيَّتِهِ، وَرَبِّمَا تَسَبَّبَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ إِلَى إِيقَاعِ النَّاسِ فِي أَمْرٍ يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَيْهِ؛ لِيُضْطَرَّ لَهُمْ بِذَلِكَ إِلَى رَفْعِ حَاجَاتِهِمْ إِلَيْهِ، وَظُهُورِ افْتِقَارِهِمْ وَاحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ، وَتَتَعَاضَطُ بِذَلِكَ وَيَتَكَبَّرُ بِهِ، وَهَذَا لَا يَصْلَحُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.



[التضرع خاص بالله لا ينبغي للخلق أن يلجأ إليهم]

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤] .

وفي بعض الآثار: إن الله تعالى ليبتلي عبده بالبلاء لیسْمَعَ تَضَرَّعَهُ .

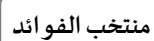
وفي بعض الآثار - أيضاً - : أن العبد إذا دعا الله تعالى وهو يُحِبُّهُ قال الله تعالى: «يا جبريلُ ، لا تَعْجَلْ بِقَضَاءِ حَاجَتِهِ ، فَإِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَ تَضَرَّعَهُ» .

فهذه الأمورُ أصعبُ وأخطرُ من مجردِ الظلمِ وأدهى من الشُّركِ ، والشُّركُ أعظمُ الظُّلمِ عند الله .

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: الْكَافِرُ يَأْخُذُ رِدَائِي ، وَالْعَظْمَةُ إِزَارِي ، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا عَذَّبْتُهُ» .

كان بعضُ المتقدمين قاضياً ، فرأى في منامه كأنَّ قاتلاً يقول: أَنْتَ قَاضٍ ، والله قَاضٍ . فاستيقظَ مُنزعجاً ، وخرجَ عن القضاء وتركه .





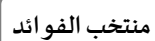
۳۷۴

[المنع من عبارة قاضي القضاة وحاكم الحُكَّام]

وكان طائفةٌ مِنَ القضاةِ الورعين يَمْنَعُونَ النَّاسَ أَنْ يَدْعُوهُمْ بِ«قَاضِي الْقُضَاةِ»، فَإِنْ هَذَا الْاسْمُ يُشَبِّهُ مَلِكَ الْمُلُوكِ الَّذِي ذَمَّ النَّبِيُّ ﷺ التَّسْمِيَةَ بِهِ .
وقال: «لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ» .

و«حَاكِمِ الْحُكَّامِ» مِثْلُهُ ، أَوْ أَشَدُّ مِنْهُ .



This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

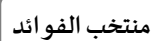
[ذُمُّ طَلَبِ الْحَمْدِ عَلَى الْفَعْلِ الْجَمِيلِ]

ومن هذا الباب - أيضاً - أن يُحِبُّ ذُو الشَّرَفِ والوَلَايَةِ أَنْ يُحَمِّدَ عَلَى أفعاله وَيُثْنِيَ عليه بها ، ويطلبُ من الناسِ ذلك ، وَيَتَسَبَّبُ في أذى من لا يُجِيبُهُ إليه ، وربما كانَ ذلكَ الفعلُ إِلَى الذَّمِّ أَقْرَبَ منه إِلَى المدحِ ، وربما أظهرَ أمراً حَسَنًا في الظاهرِ ، وأحبَّ المدحَ عليه ، وقصدَ به في الباطنِ شراً ، وفرِحَ بتمويهِ ذلكَ وترويجهِ عَلَى الخلقِ .

وهذا يدخلُ في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُجِبُونَ أَنْ يُحَمِّدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨] ، فإنَّ هذه الآيةَ إنما نزلتْ فيمن هذه صفتهُ ، وهذا الصفةُ - أعني طلبَ المدحِ مِنَ الخلقِ ومحَبَّةُ العقوبةِ عَلَى تركهِ - لا تَصْلُحُ إِلَّا لِلَّهِ وحدهُ لا شريكَ لَهُ .

ومن هنا كانَ أئمةُ الهدى ينهونَ عن حمدِهِم عَلَى عدْلِهِم وما يصدرُ منهم من الإحسانِ إِلَى الخلقِ ، ويأمرونَ بإضافةِ الحمدِ عَلَى ذلكَ إِلَى الله تعالى وحدهُ لا شريكَ لَهُ ، فَإِنَّ النِّعَمَ كُلَّهَا مِنْهُ .

وكانَ عمرُ بْنُ عبدِ العزيزِ شديدَ العنايةِ بذلكَ ، وكتبَ مرةً إِلَى أهلِ الموسمِ كتاباً يَقْرَأُ عليهم ، وفيه الأمرُ بالإحسانِ إليهم ، وإزالةِ مظالمِ كانتَ عليهم ، وفي الكتابِ: «ولا تحمدوا عَلَى ذلكَ كُلِّهِ إِلَّا الله ، فَإِنَّهُ لَوْ وَكَّلَنِي إِلَى نَفْسِي كُنْتُ كَغَيْرِي» .



३५८

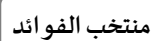
وحكايته مع المرأة التي طلبت منه أن يفرضَ لبناتها اليتامى مشهورةً ،
فإنها كانت لها أربع بناتٍ ، ففرضَ لابنتينٍ منهنَّ ، وهي تحمدُ اللهَ ، ثم فرضَ
لِلثالثةِ فشكرتهُ ، فقالَ : إِنَّمَا كُنَّا نفرضُ لهنَّ حيثُ كنتِ تُولينَ الحمدَ أهلهُ ،
فمُرِّي هؤلاءِ الثلاثِ يُواسينَ الرابعةَ . أو كما قال ﷺ .

وحاصل الأمر : أن يُعرفَ أنَّ ذا الولايةِ إنما هو مُتَنَصِّبٌ لتنفيذِ أمرِ الله
تعالى ، وأمرِ العبادِ بطاعةِ الله تعالى ، ونهيهِ لهم عن محارمِ الله ، ناصحٌ لعبادِ الله
بُدعائهم إلى الله ، فهو يقصد أن يكون الدينُ كلهُ لله ، وأن تكون العِزَّةُ لله ، وهو
مع ذلك خائفٌ من التقصيرِ في حقوقِ الله .

وأيضاً : فالمُحِبُّونَ لله غَايَةُ مقاصدهم من الخلقِ أن يحبوا الله ويطيعوه ،
ويفردوه بالعبوديةِ والإلهيةِ ، فكيف يزاحمونه في شيء من ذلك ؟ فهو لا يريدُ
من الخلقِ جزاءً ولا سُكُوراً ، وإنما يَرْجُو ثوابَ عمله من الله كما قال الله
تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ أَلْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ
كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَلْكِتَابَ
وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ٧٩ ﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ
بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ [آل عمران : ٧٩-٨٠] .

وقال ﷺ : « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ،
فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » .

وَكَانَ ﷺ يُنْكِرُ عَلَى مَنْ لَا يَتَأَدَّبُ مَعَهُ فِي الْخُطَابِ بِهَذَا الْأَدَبِ ، كَمَا قَالَ :
« لَا تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، بَلْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ » .



38.

وقال لمن قال: مَا شَاءَ اللَّهُ وشئت: «أجعلتني والله عدلاً؟! بل ما شاء الله وحده».

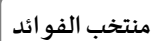
فَمِنْ هُنَا كَانَ خُلَفَاءُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعُهُمْ مِنْ أُمَرَاءِ الْعَدْلِ وَقُضَاتِهِمْ لَا يَدْعُونَ إِلَى تَعْظِيمِ نَفُوسِهِمُ الْبَتَّةَ؛ بَلْ إِلَى تَعْظِيمِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ لَا يُرِيدُ الْوَلَايَةَ إِلَّا لِلْاِسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ.

فكان بعضُ الصالحين يتولى القضاء ويقول: أنا أتولاه لِأَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

ولهذا كانتِ الرُّسُلُ ﷺ وَأَتْبَاعُهُمْ يَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَتَحَمَّلُونَ فِي تَنْفِيزِ أَوْامِرِ اللَّهِ مِنَ الْخَلْقِ غَايَةَ الْمَشَقَّةِ وَهُمْ صَابِرُونَ، بَلْ رَاضُونَ بِذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَحَبَّ رُبَّمَا يَتَلَذَّذُ بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْأَذَى فِي رِضَا مَحْبُوبِهِ، كَمَا كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُ لِأَبِيهِ فِي خِلَافَتِهِ إِذَا حَرَّضَهُ عَلَى تَنْفِيزِ الْحَقِّ وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ: يَا أَبَتِ، لَوَدِدْتُ أَنَّهُ لَوْ غَلَّتْ بِي وَبِكَ الْقُدُورُ فِي اللَّهِ ﷻ.

وقال بعضُ الصالحين: وَدِدْتُ أَنَّ جِسْمِي قُرِضَ بِالْمَقَارِيضِ وَأَنَّ هَذَا الْخَلْقَ كُلَّهُمْ أَطَاعُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَعُرِضَ قَوْلُهُ عَلَى بَعْضِ الْعَارِفِينَ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ أَرَادَ بِذَلِكَ النَّصِيحَةَ لِلْخَلْقِ وَإِلَّا فَلَا أَدْرِي، ثُمَّ غُشِيَ عَلَيْهِ.

ومعنى هذا: أَنَّ صَاحِبَ هَذَا الْقَوْلِ قَدْ يَكُونُ لِحَظِ نُصْحِ الْخَلْقِ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، فَأَحَبَّ أَنْ يَفْدِيَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِأَذَى نَفْسِهِ، وَقَدْ يَكُونُ

This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

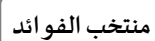
لحظ جَلَالَ الله وعظمتِه وما يستحقُّه من الإجلالِ والإكرامِ والطَّاعةِ والمحبةِ ،
فَوَدَّ أَنْ الخلقَ قاموا بذلك ، وإن حَصَلَ له في نفسه غايَةُ الضررِ ، وهذا هو مشهُدُ
خواصِّ المُحبين العارفينَ ، وبِمُلاحظته غُشيَ عَلَى هذا الرجلِ العارفِ ﷺ .

وقد وصف الله المحبين له في كتابه بأنهم يجاهدون في سبيل الله ولا
يخافون لومة لائم .

وفي ذلك يقول بعضهم:

أَجْدُ الْمَلَامَةِ فِي هَوَاكَ لَذِيذَةٌ ❁ حُبَّ لَذِكْرِكَ فَلْيُلْمَنِي الْيَوْمَ





383

[طلب الشرف بالدين]

❁ القسم الثاني :

طلبُ الشَّرَفِ والعُلُوِّ عَلَى الناسِ بالأُمُورِ الدِّينِيَّةِ ، كَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالزُّهْدِ .

فهذا أفحشُ من الأولِ وأقبحُ وأشدُّ فساداً وخطراً ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ
وَالزُّهْدَ إِنَّمَا يُطْلَبُ بِهَا الشَّرَفُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْقُرْبُ مِنْهُ وَالزُّلْفَى لَدَيْهِ ، وَيُطْلَبُ بِهَا
مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ لَدَيْهِ .

قال الثوريُّ: إِنَّمَا فَضِّلَ الْعِلْمُ ؛ لِأَنَّهُ يُتَّقَى بِهِ اللَّهُ ، وَإِلَّا كَانَ كَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ .

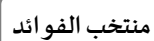
فَإِذَا طُلِبَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا عَرَضَ الدُّنْيَا الْفَانِي فَهُوَ - أَيْضًا - نَوْعَانِ :

❁ أحدهما: أَنْ يُطْلَبَ بِهِ الْمَالُ ، فَهَذَا مِنْ نَوْعِ الْحَرَصِ عَلَى الْمَالِ وَطَلْبِهِ
بِالْأَسْبَابِ الْمَحْرَمَةِ .

وَفِي هَذَا جَاءَ الْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ
اللَّهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»
يَعْنِي: رِيحَهَا .

خَرَّجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَابْنُ مَاجَهَ ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»
مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ .





386

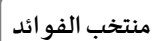
[الجنة المعجّلة في الدنيا]

وسببُ هذا - والله أعلم - أَنَّ في الدُّنْيَا جَنَّةً مُعَجَّلَةً ، وهي معرفةُ الله تعالى ومحَبَّتُهُ ، والأنسُ به والشَّوْقُ إِلَى لِقَائِهِ ، وخَشْيَتُهُ وطَاعَتُهُ ، والعِلْمُ النافعُ يدلُّ عَلَى ذلك ، فمن دَلَّه علمُهُ عَلَى دخول هذه الجنةِ المُعَجَّلَةِ في الدُّنْيَا = دَخَلَ الجنةَ في الآخرةِ ، ومن لم يَشْمَ رائحتَهَا لم يَرَحْ رائحةَ الجنةِ في الآخرةِ .

ولهذا كان أشدَّ الناسِ عذابًا في الآخرةِ عالمٌ لم ينفعُهُ علمُهُ ، وهو من أشدَّ الناسِ حَسْرَةً يَوْمَ القيامةِ ؛ حيثُ كان معه آلَةٌ يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ وَأَرْفَعِ المَقَامَاتِ ، فلم يستعملها إِلَّا في التَّوَصُّلِ إِلَى أَحْسَنِ الْأُمُورِ وَأَدْنَاهَا وَأَحْقَرِهَا ، كَمَنْ كانت معه جواهرٌ نفيسةٌ لها قيمةٌ ، فباعَهَا بِبَعْرٍ أو شيءٍ مُستَقْدَرٍ لَا يُنْتَفَعُ بِهِ ، بل حَالٌ من يَطْلُبُ الدُّنْيَا بعلمِهِ ، أَقْبَحُ وَأَقْبَحُ ، وكذلك من يَطْلُبُهَا بِإِظْهَارِ الزَّهْدِ فِيهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ خِدَاعٌ قَبِيحٌ جَدًّا .

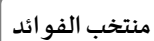
وكان أبو سليمان الدَّارانيُّ يَعِيبُ عَلَى من لَيْسَ عِبَادَةً وفي قلبِهِ شَهْوَةٌ من شهواتِ الدُّنْيَا تساوي أَكْثَرَ من قِيَمَةِ الْعِبَادَةِ .

يُشِيرُ إِلَى أَنَّ إِظْهَارَ الزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا بِاللِّبَاسِ الدَّنِيِّ إِنَّمَا يَصْلُحُ لِمَنْ فَرَّغَ قَلْبُهُ مِنَ التَّعَلُّقِ بِهَا ، بحيثُ لَا يَتَعَلَّقُ قَلْبُهُ بِهَا بِأَكْثَرَ من قِيَمَةِ مَا لِبَسَهُ فِي الظَّاهِرِ ، حتَّى يَسْتَوِيَ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ فِي الْفَرَاغِ مِنَ الدُّنْيَا .

This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

وما أحسنَ قولَ بعضِ العارفينَ - وقد سُئِلَ عن الصوفيِّ - فَقَالَ:
الصوفيُّ، مَنْ لبَسَ الصُّوفَ عَلَى الصِّفَا، وَسَلَكَ طَرِيقَ الْمُصْطَفَى، وَذَاقَ
الْهُوَى بَعْدَ الْجَفَا، وَكَانَتِ الدُّنْيَا مِنْهُ خَلْفَ الْقَفَا.





۳۹.

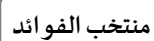
[طلب العلم للرياسة]

❁ النوع الثاني: مَنْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ وَالزَّهْدَ لِلرِّيَاسَةِ عَلَى الْخَلْقِ والتعاضُّمِ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَنْقَادَ الْخَلْقُ وَيَخْضَعُوا لَهُ وَيَصْرِفُوا وُجُوهَهُمْ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يُظْهَرَ لِلنَّاسِ زِيَادَةُ عِلْمِهِ عَلَى الْعُلَمَاءِ ؛ لِيَعْلَمُوا فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ وَنَحْوَ ذَلِكَ ، فَهَذَا وَعَيْدُهُ النَّارُ ؛ لِأَنَّ قَصْدَهُ التَّكَبُّرُ عَلَى الْخَلْقِ ، وَهُوَ فِي نَفْسِهِ مُحَرَّمٌ ، فَإِذَا اسْتَعْمَلَ فِيهِ آلَةَ الْآخِرَةِ كَانَ أَقْبَحَ وَأَفْحَشَ مِنْ أَنْ يَسْتَعْمَلَ فِيهِ آلَاتِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ وَالسُّلْطَانِ .

وفي «السنن» عن النبي ﷺ قال: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ يَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ» .

خرجه الترمذيُّ من حديث كعب بن مالكٍ ، وخرجه ابنُ ماجهٍ من حديث ابنِ عمرَ وحُذِيفَةُ وعنده: «فَهُوَ فِي النَّارِ» .



This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

[الرياء بالعلم]

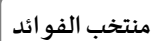
وخرَّج ابن ماجه ، وابنُ حبان في «صحيحه» من حديث جابر ، عن النبي ﷺ قال: «لَا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لِيُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءُ ، وَلَا لِيُتَمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءُ ، وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ ؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالِنَارَ النَّارَ» .

وخرَّجه ابنُ عديٍّ من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه ، وزاد فيه: «وَلَكِنْ تَعْلَمُوهُ لَوَجْهِ اللَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ» .

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لثَلَاثٍ: لِيُتَمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءُ ، أَوْ لِيُجَادِلُوا بِهِ الْفُقَهَاءُ ، أَوْ لِيَتَصَرَّفُوا بِهِ وَجُوهَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ ، وَابْتَغُوا بِقَوْلِكُمْ وَفَعَلِكُمْ مَا عِنْدَ اللَّهِ ؛ فَإِنَّهُ يَبْقَى ، وَيَذْهَبُ مَا سِوَاهُ» .

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عن النبي ﷺ: «إِنْ أَوَّلَ خَلْقٍ خَلَقَ اللَّهُ تَسْتَعِرُّ بِهِ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ...» مِنْهُمْ الْعَالَمُ الَّذِي قَرَأَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: قَارِئٌ ، وَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ ، وَأَنَّهُ يُقَالَ لَهُ: قَدْ قِيلَ ذَلِكَ ، وَأَمْرٌ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَذَكَرَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمُتَصَدِّقِ لِيُقَالَ إِنَّهُ جَوَادٌّ ، وَفِي الْمَجَاهِدِ لِيُقَالَ إِنَّهُ شُجَاعٌ .

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يَا حَمَلَةَ الْعِلْمِ ، اْعْمَلُوا بِهِ ؛ فَإِنَّمَا الْعَالَمُ مِنْ عَمَلٍ بِمَا عَمِلَ ، فَوَافَقَ عَمَلُهُ عِلْمَهُ ، وَسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ ، يُخَالِفُ عَمَلُهُمْ عِلْمُهُمْ ، وَتَخَالَفُ سِرِّيَّتُهُمْ عَلَانِيَتُهُمْ ، يَجْلِسُونَ حِلَقًا حِلَقًا



۳۹۴

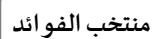
فبهاهي بعضهم بعضاً ، حتى إنَّ الرجلَ ليغضبُ على جليسه أن يجلسَ إلى غيره ويدعه ، أولئك لا تصعدُ أعمالُهم في مجالسهم تلك إلى الله ﷻ .

وقال الحسنُ : لا يكونُ حظُّ أحدِكُم من العلم أن يقول له الناس : عالمٌ .

وفي بعض الآثار أن عيسى عليه السلام قال : « كيف يكون من أهل العلم من يطلبُ العلمَ ليُحدِّثَ به ولا يطلبُهُ ليعملَ به ؟ ! » .

وقال بعضُ السلفِ : بلغنا أنَّ الذي يطلبُ الأحاديثَ ليحدِّثَ بها لا يجدُ ريحَ الجنةِ ، يعني : من ليس له غرضٌ في طلبها إلاَّ ليحدِّثَ بها دونَ العملِ بها .





۳۹۷

ذمُّ الفتيا

ومن هذا الباب كره السلف الصالح الجُرْأَةُ عَلَى الفتيا والحرص عليها
والمسارعة إليها والإكثار منها.

وروى ابنُ لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر مرسلاً، عن النبي ﷺ قال:
«أَجْرُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرُكُمْ عَلَى النَّارِ».

وقال علقمة: كانوا يَقُولُونَ: أَجْرُهُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَقْلُهُمْ عِلْمًا.

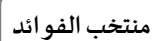
وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «أَدْرَكْتُ مِائَةً وَعِشْرِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ
مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُسْأَلُ أَحَدُهُمْ عَنِ الْمَسْأَلَةِ مَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَدَّ
أَنْ أَخَاهُ كَفَاهُ».

وفي رواية: «فِيرُدُّهَا هَذَا إِلَى هَذَا، وَهَذَا إِلَى هَذَا حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى الْأَوَّلِ».

وعن ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي يُفْتِي النَّاسَ فِي كُلِّ مَا يَسْتَفْتُونَهُ بِهِ
لَمَجْنُونٌ».

وُسئِلَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَقَالَ: مَا أَنَا عَلَى الْفُتْيَا بِجَرِيءٍ.

وَكُتِبَ إِلَيَّ بَعْضُ عُمَالِهِ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَنَا بِحَرِيصٍ عَلَى الْفُتْيَا مَا وَجَدْتُ
مِنْهَا بُدًّا.



۳۹۱

وقال ابن عُيَيْنَةَ: لَيْسَ هَذَا الْأَمْرُ لِمَنْ وَدَّ أَنْ النَّاسَ احتاجُوا إِلَيْهِ، إِنَّمَا هَذَا الْأَمْرُ لِمَنْ وَدَّ أَنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَكْفِيهِ.

وعنه أَنَّهُ قَالَ: أَعْلَمُ النَّاسِ بِالْفُتُوى أَسَكَّتُهُمْ، وَأَجْهَلُهُمْ بِهَا أَنْطَقُهُمْ.

وقال سفيان الثوري: أدركنا الفقهاء وهم يكرهون أن يُجيبوا في المسائل والفتيا حتى لا يجدوا بداً من أن يُفتوا، وإذا أعفوا منها كان أحبَّ إليهم.

وقال الإمام أحمد: مَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْفُتْيَا فَقَدْ عَرَّضَهَا لِأَمْرِ عَظِيمٍ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ تَلَجَّى الضَّرُورَةُ.

قِيلَ: فَأَيُّمَا أَفْضَلُ؟ الْكَلَامُ أَمْ السُّكُوتُ؟

قال: الإِمْسَاكُ أَحَبُّ إِلَيَّ.

قِيلَ لَهُ: فَإِذَا كَانَتِ الضَّرُورَةُ؟

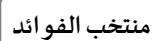
فَجَعَلَ يَقُولُ: الضَّرُورَةُ الضَّرُورَةُ! وَقَالَ: الإِمْسَاكُ أَسْلَمُ لَهُ.

وليعلم المفتي أَنَّهُ يَوْقَعُ عَنِ اللَّهِ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ، وَأَنَّهُ مَوْقِفٌ وَمَسْئُولٌ عَنْ ذَلِكَ.

قال الربيع بن خثيم: أَيُّهَا الْمُفْتُونَ! انظُرُوا كَيْفَ تُفْتُونَ.

وقال عمرو بن دينارٍ لِقَتَادَةَ لما جَلَسَ لِلْفُتْيَا: أَتَدْرِي فِي أَيِّ عِلْمٍ وَقَّعْتَ؟! قَمَتَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ وَقَلَّتْ: هَذَا يَصْلَحُ، وَهَذَا لَا يَصْلَحُ.

وعن ابن المنكدر قال: إِنَّ الْعَالَمَ دَاخِلٌ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ.

This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

وكان ابن سيرين إذا سُئِلَ عن الشيء من الحلال والحرام تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَتَبَدَّلَ ، حتَّى كَانَهُ لَيْسَ بِالَّذِي كَانَ .

وكان النَّخَعِيُّ يُسَالُّ فتنظهُرُ عليه الكراهةُ ويقولُ: ما وجدتُ أحدًا تسأله غيري؟!

وقال: قَدْ تَكَلَّمْتُ ولو وجدتُ بُدًّا مَا تَكَلَّمْتُ ، وإنَّ زمانًا أَكُونُ فيه فقيهَ الكُوفَةِ لزمانٌ سُوءٌ .

ورُوِيَ عن ابن عمر قال: إِنَّكُمْ لتَسْتَفْتُونَا استفتاءَ قومٍ كَأَنَّا لَا نُسَالُّ عَمَّا نُفْتِيكُمْ بِهِ .

وعن محمد بن واسعٍ قال: أَوَّلُ من يُدْعَى إِلَى الحِسابِ الفُقَهَاءُ .

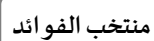
وعن مالكٍ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سُئِلَ عن المَسْأَلَةِ كَأَنَّهُ واقِفٌ بين الجنةِ والنَّارِ .

وقال بعضُ العلماءِ لبعضِ المُفْتِينَ: إِذَا سُئِلْتَ عن مَسْأَلَةٍ فَلَا يَكُنْ هُمُكَ تَخْلِيصُ السَّائِلِ ، وَلَكِنْ تَخْلِيصُ نَفْسِكَ أَوَّلًا .

وقال لِآخَرَ: إِذَا سُئِلْتَ عن شيءٍ فَتَفَكَّرْ ؛ فَإِذَا وَجَدْتَ لِنَفْسِكَ مَخْرَجًا فَتَكَلَّمْ ، وَإِلَّا فَاسْكُتْ .

وكلامُ السلفِ ﷺ في هذا المعنى كثيرٌ جدًّا ، ويطولُ ذكرُهُ واستِقصاؤُهُ .



This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

[ذمُّ الدخول على الملوك]

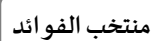
ومن هذا الباب أيضاً: كراهةُ الدخولِ على الملوكِ والدُّنُوِّ منهم ، وهو البابُ الَّذِي يدخلُ منه علماءُ الدُّنْيَا إلى نيلِ الشَّرَفِ والرياساتِ فيها .

وخرَجَ الإمامُ أحمدُ ، وأبو داود ، والترمذيُّ ، والنسائيُّ من حديثِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما ، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وآله قال : «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا ، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ ، وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السَّلْطَانِ افْتِنَ» .

وخرج أحمد ، وأبو داود نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلَّى الله عليه وآله وفي حديثه : «وَمَا أَرْدَادَ أَحَدٍ مِنَ السَّلْطَانِ دُنُوًّا إِلَّا أَرْدَادَ مَنْ اللَّهِ بُعْدًا» .

وخرج ابن ماجه من حديث ابن عباس ، عن النبي صلَّى الله عليه وآله قال : «إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي سَيَفْقَهُونَ فِي الدِّينِ وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَقُولُونَ: نَأْتِي الْأَمْرَاءَ فَنُصِيبُ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَنَعْتَزِلُهُمْ بِدِينِنَا ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ كَمَا لَا يُجْتَنَى مِنَ الْقِتَادِ إِلَّا الشُّوكُ ، كَذَلِكَ لَا يُجْتَنَى مِنْ قُرْبِهِمْ - يَعْنِي: إِلَّا الْخَطَايَا -» .

وخرجه الطبراني ، ولفظه : «إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي سَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَعَمَّقُونَ فِي الدِّينِ يَأْتِيهِمُ الشَّيْطَانُ يَقُولُ: لَوْ أَتَيْتُمُ الْمُلُوكَ فَأَصَبْتُمُ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَاعْتَزَلْتُمُوهُمْ بِدِينِكُمْ ، أَلَا وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ كَمَا لَا يُجْتَنَى مِنَ الْقِتَادِ إِلَّا الشُّوكُ ، كَذَلِكَ لَا يُجْتَنَى مِنْ قُرْبِهِمْ إِلَّا الْخَطَايَا» .

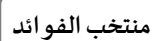
Σ · Σ

وخرَجَ الترمذِيُّ من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : «تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جُبِّ الْحَزَنِ» ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَمَا جُبُّ الْحَزَنِ ؟ قَالَ : «وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ» ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَدْخُلُهُ ؟ قَالَ : «الْقُرَّاءُ الْمُرَاوُونَ بِأَعْمَالِهِمْ» .

وخرَجَ ابن ماجه نحوه ، وزاد فيه : «وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الْقُرَّاءِ إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ يُزْوَرُونَ الْأُمَرَاءَ الْجَوْرَةَ» .

ويُروى من حديث عليٍّ رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ نحوه .





Σ. 6

[تصديقُ الملوكِ الظَّلمةِ وإِعاتُهم]

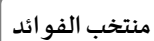
وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُخْشَى عَلَى مَنْ دَخَلَ عَلَى الْمُلُوكِ الظَّالِمَةِ أَنْ يُصَدِّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ ، وَيُعِينَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَلَوْ بِالسَّكُوتِ عَنِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ مَنْ يُرِيدُ بِدُخُولِهِ عَلَيْهِمُ الشَّرَفَ وَالرِّيَاسَةَ - وَهُوَ حَرِيصٌ عَلَيْهِمَا - لَا يُقَدِّمُ عَلَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ؛ بَلْ رُبَّمَا حَسَّنَ لَهُمْ بَعْضَ أَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ تَقَرُّبًا إِلَيْهِمْ ؛ لِيَحْسُنَ مَوْقِعُهُ عِنْدَهُمْ ، وَيُسَاعِدُوهُ عَلَى غَرَضِهِ .

وقد خَرَجَ الإمامُ أحمدُ ، والترمذيُّ ، والنسائيُّ ، وابنُ حبانٍ في «صحيحه» من حديثِ كعبِ بنِ عُجْرَةَ ، عن النبي ﷺ قال : «سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ ؛ فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضَ ، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَلَمْ يُصَدِّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضَ» .

وخرج الإمامُ أحمدُ معنى هذا الحديث من حديث حذيفة ، وابنِ عمرَ ، وخبَّابِ بنِ الأَرْتِ ، وأبي سعيد الخُدريِّ ، والنُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضي الله عنهم .

وقد كان كثير من السلفِ يَنْهَوْنَ عَنِ الدُّخُولِ عَلَى الْمُلُوكِ لِمَنْ أَرَادَ أَمْرَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ أَيْضًا .

وَمِمَّنْ نَهَى عَنْ ذَلِكَ : عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَابْنُ الْمُبَارَكِ وَالثَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْأُئِمَّةِ رضي الله عنهم .

 $\Sigma \cdot \wedge$

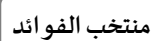
وقال ابن المبارك: ليس الأمر الناهي عندنا من دخل عليهم فأمرهم ونهاهم، إنما الأمر الناهي من اعتزلهم.

وسبب هذا ما يخشى من فتنة الدخول عليهم؛ فإن النفس قد تُخيل للإنسان إذا كان بعيداً عنهم أنه يأمرهم وينهاهم ويغلط عليهم، فإذا شاهدهم فربما مالت النفس إليهم؛ لأن محبة الشرف كامنة في النفس، فحببت له بذلك مداونتهم وملاطفتهم، وربما مال إليهم وأحبهم، ولا سيما إن لا طفوه وأكرموه وقبل ذلك منهم، وقد جرى ذلك لعبد الله بن طوس مع بعض الأمراء بحضرة أبيه طوس فوبّخه طوس على فعله ذلك.

وكتب سُفيان الثوري إلى عباد بن عباد، وكان في كتابه:

«وإياك والأمراء أن تدنو منهم أو تُخالطهم في شيء من الأشياء، وإياك أن تُخدع ويقال لك: تشفع وتدرأ عن مظلوم أو ترد مظلمة؛ فإن ذلك خديعة إبليس، وإنما اتخذها فجّار القراء سلماً، وما كُفيت من المسألة والفتيا فاعنتم ذلك ولا تنافسهم، وإياك أن تكون كمن يحب أن يعمل بقوله أو يُشرّ قوله أو يُسمع من قوله، فإذا ترك ذاك منه عُرِف فيه، وإياك وحب الرئاسة، فإن الرجل تكون الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقد نفسك واعمل بنية، واعلم أنه قد دنا من الناس أمرٌ يشتهي الرجل أن يموت، والسلام».



[illegible]

[كراهةُ الشهرة]

ومن هذا الباب أيضاً: أن يشهر الإنسان نفسه للناس بالعلم والزهد والدين ، أو بإظهار الأعمال والأقوال والكرامات حتى يُزار وتُلتَمَسَ بركته ودُعاؤه ، وتُقبَلْ يده وهو مُجيبٌ إلى ذلك ، ويُقيمُ عليه أو يفرحُ به أو يسعى في أسبابه .

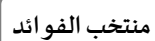
ومن هنا كان السلف الصالح يكرهون الشهرة غاية الكراهة ، منهم : أيوبُ والنخعيُّ وسفيانُ وأحمدُ وغيرُهم من العلماء الربانيين ، وكذلك الفضيلُ وداودُ الطائِيَّ وغيرُهما من الزهادِ والعارفين ، وكانوا يذُمون أنفسهم غاية الذمِّ ويسترون أعمالهم غاية السَّترِ .

دخل رجلٌ على داودَ الطائِيَّ فسأله ما جاء به ؟ فقال : جئتُ أزورك ، فقال : أمّا أنت فقد أصبتَ خيراً حيثُ زُرتَ في الله ، ولكن أنا أنظرُ ماذا لقيتُ إذا قيل لي غداً : من أنتَ حتّى تُزارَ ؟ من الزهادِ أنتَ ؟ لا والله ، من العبادِ أنتَ ؟ لا والله ، من الصالحينَ أنتَ ؟ لا والله ... وعدَدَ خصالَ الخيرِ على هذا الوجه ، ثمَّ جعلَ يُويِّخُ نفسه ، فيقول : يا داودُ ! كنتَ في الشَّيبةِ فاسقاً ، فلمّا شَبَتَ صِرْتَ مُرَائِيّاً ، والمُرَائِي شَرٌّ من الفاسقِ .

وكان محمدُ بنُ واسعٍ يقولُ : لو أنَّ للذنوبِ رائحةً ما استطاعَ أحدٌ أن يُجَالِسَنِي .

وكان إبراهيمُ النخعيُّ إذا دخلَ عليه أحدٌ وهو يقرأ في المصحفِ غَطَّاهُ .

وكان أُويسُ وغيرُه من الزهادِ إذا عُرِفوا في مكانٍ ارتحلوا منه .

This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

[كثير من السلف يكرهون أن يُطلب منهم الدعاء]

وكان كثيرٌ من السلفِ يكرهُ أن يُطَلَّبَ منه الدُّعاءُ، ويقولُ لمن يسأله الدُّعاءُ: أَنبيُّ أنا؟!

وَمِمَّنْ رُوِيَ عَنْهُ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَحذيفةُ بن اليمان رضي الله عنه، وكذلك مالكُ بن دينارٍ.

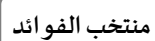
وكان النخعي يكرهُ أن يُسألَ الدُّعاءُ.

وكتبَ رجلٌ إِلَى أحمدَ رضي الله عنه يسألهُ الدعاءَ فَقَالَ أحمدُ: إذا دعونا نحنُ لهذا، فمن يدعُو لنا؟!

وَوُصِفَ بعضُ الصالحينَ واجتهادُهُ في العبادةِ لبعضِ الملوكِ فَعَزَمَ عَلَى زيارتهِ، فبلغَهُ ذَلِكَ فجلسَ عَلَى قَارِعةِ الطريقِ يَأْكُلُ، فَوَافاهُ الملكُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الحَالَةِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السلامَ، وجعلَ يَأْكُلُ أَكْلاً كَثِيراً وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى الملكِ، فَقَالَ الملكُ: ما في هذا خيرٌ، وَرَجَعَ. فَقَالَ الرجلُ: الحمدُ لله الَّذِي رَدَّه عَنِّي وَهُوَ لَائِمٌّ.

وهذا بابٌ واسعٌ جداً.

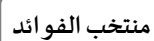
وها هنا نُكتةٌ دقيقةٌ: وهي أن الإنسانَ قد يذُمُ نَفْسَهُ بينَ الناسِ يُريدُ بذلك أن يُريَ الناسَ أَنَّهُ مُتَوَاضِعٌ عِنْدَ نَفْسِهِ، فيرتفعُ بذلكَ عِنْدَهُمْ ويمدحُونَهُ بِهِ، وهذا من دَقَائِقِ أَبْوَابِ الرِّيَاءِ وقد نَبَّهَ عَلَيْهِ السلفُ الصالحُ.



३१३

قال مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ: كَفَى بِالنَّفْسِ إِطْرَاءً أَنْ تُذَمَّهَا عَلَى
الْمَلَأِ، كَأَنَّكَ أَرَدْتَ بِذَمِّهَا زَيْنَهَا، وَذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ سَفَهٌ.





११६

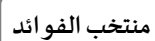
فَصْلٌ

وقد تبين بما ذكرنا أنَّ حبَّ المال والرياسة والحرص عليهما يُفسدُ دينَ المرء حتى لا يبقى منه إلا ما شاء الله ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ .
وأصلُّ محبةِ المال والشرف من حُبِّ الدُّنيا ، وأصل حُبِّ الدُّنيا اتِّباعُ الهوى .

قال وهبُ بنُ مُنبهٍ: من اتَّبَعَ الهوى الرغبة في الدُّنيا ، ومن الرغبة فيها حُبُّ المال والشرف ، ومن حُبِّ المال والشرف استحلالُ المحارم .
وهذا كلامٌ حسنٌ ؛ فإنه إنَّما يحملُ على حب المال والشرف الرغبة في الدُّنيا ، وإنما تحصلُ الرغبة في الدُّنيا من اتِّباع الهوى ؛ لأنَّ الهوى دافعٌ إلى الرغبة في الدُّنيا وحُبِّ المال والشرف فيها ، والتقوى تمنعُ من اتِّباع الهوى وتردُّعُ عن حُبِّ الدُّنيا .

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۖ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۖ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۖ ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١] .

وقد وصفَ الله أهل النار بالنارِ بالمال والسلطان في مواضع من كتابه العزيز ؛ كقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابَهُ ۖ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابُهَا ۖ يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۖ ﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿ ٢٨ ﴾ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿ ٢٩ ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩] .

This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

واعلم: أن النفس تُحِبُّ الرَّفْعَةَ وَالْعُلُوَّ عَلَى أَبْنَاءِ جَنَسِهَا ، وَمِنْ هُنَا نَشَأُ الْكِبْرُ وَالْحَسَدُ ، وَلَكِنَّ الْعَاقِلَ يُنَافِسُ فِي الْعُلُوِّ الدَّائِمِ الْبَاقِي الَّذِي فِيهِ رِضْوَانُ اللَّهِ وَقُرْبُهُ وَجِوَارُهُ ، وَيَرْغَبُ عَنِ الْعُلُوِّ الْفَانِي الزَّائِلِ ، الَّذِي يَعْقُبُهُ غَضَبُ اللَّهِ وَسُخْطُهُ ، وَانْحِطَاطُ الْعَبْدِ وَسُقُوطُهُ وَبَعْدُهُ عَنِ اللَّهِ وَطَرْدُهُ عَنْهُ ، فَهَذَا الْعُلُوُّ الْفَانِي الَّذِي يُذَمُّ ، وَهُوَ الْعَتُوُّ وَالتَّكَبُّرُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .

وَأَمَّا الْعُلُوُّ الْأَوَّلُ وَالْحِرْصُ عَلَيْهِ فَهُوَ مَحْمُودٌ .

قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] .

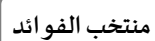
وقال الحسن: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يُنَافِسُكَ فِي الدُّنْيَا فَنَافِسْهُ فِي الْآخِرَةِ .

وقال وَهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَسْبِقَكَ إِلَى اللَّهِ ﷻ أَحَدٌ فَافْعَلْ .

وقال مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْأَصْبَهَانِيُّ الْعَابِدُ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ بِرَجُلٍ أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْهُ أَوْ عَرَفَهُ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْزَنَهُ ذَلِكَ .

وقال غيره: لَوْ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ بِرَجُلٍ أَوْ عَرَفَ رَجُلًا أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْهُ فَانْصَدَعَ قَلْبُهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِعَجَبٍ .

وقال رجلٌ لِمَالِكِ بْنِ دِينَارٍ: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ مُنَادِيًا يُنَادِي: أَيُّهَا النَّاسُ ، الرِّحِيلُ ، الرِّحِيلُ ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَرْتَحِلُ إِلَّا مُحَمَّدَ بْنَ وَاسِعٍ ، فَصَاحَ مَالِكٌ وَغُشِيَ عَلَيْهِ .

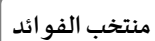


४२.

ففي دَرَجَاتِ الآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ يُشْرَعُ التَّنَافُسُ وَطَلَبُ الْعُلُوِّ فِي مَنَازِلِهَا،
وَالْحَرَصُ عَلَى ذَلِكَ بِالسَّعْيِ فِي أَسْبَابِهِ، وَأَلَّا يَقْنَعَ الْإِنْسَانُ فِيهَا بِالذُّونِ مَعَ
قُدْرَتِهِ عَلَى الْعُلُوِّ.

وَأَمَّا الْعُلُوُّ الْفَانِي الْمُنْقَطِعُ الَّذِي يُعْقِبُ صَاحِبَهُ غَدًا حَسْرَةً وَنَدَامَةً وَذِلَّةً
وَهَوَانًا وَصِغَارًا، فَهُوَ الَّذِي يُشْرَعُ الزَّهْدُ فِيهِ وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُ.





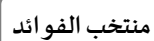
Σ ۲۲

[أسباب الزهد في العلو الفاني]

وللزهد فيه أسبابٌ عديدةٌ:

منها: نظرُ العبدِ إلى سُوءِ عاقبةِ الشَّرَفِ في الدُّنْيَا بالولايةِ والإِمارةِ لمن لا يُؤدِّي حَقَّها في الآخرةِ ، ومنها: نظرُ العبدِ إلى عُقوبةِ الظَّالِمِينَ والمتكبرين ، ومن يُنازِعُ اللهَ رِداءَ الكبرياءِ .





Σ Υ Σ

[وعيد المتكبرين]

وفي «السُّنن» عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عَصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ: طِينَةَ الْخَبَالِ».

وخرجه الترمذي وغيره من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه، عن النبي ﷺ.

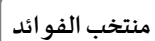
وفي روايةٍ لغيره مِنْ وَجْهِ آخَرَ فِي: «تَطَوُّهُمْ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ».

وفي أخرى: «يَطَوُّهُمْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالِدَّوَابُّ بِأَرْجُلِهَا حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ».

واستأذنَ رَجُلٌ عُمَرَ رضي الله عنه فِي الْقَصَصِ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَقْصَّ عَلَيْهِمْ فَتَرْتَفَعَ عَلَيْهِمْ فِي نَفْسِكَ حَتَّى يَضَعَكَ اللَّهُ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

ومِنْهَا: نَظَرُ الْعَبْدِ إِلَى ثَوَابِ الْمُتَوَاضِعِينَ لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا بِالرَّفْعَةِ فِي الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ.

ومِنْهَا - وَلَيْسَ هُوَ فِي قُدْرَةِ الْعَبْدِ، وَلَكِنَّهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ -:

[illegible]

مَا يُعَوِّضُ اللَّهُ عِبَادَهُ الْعَارِفِينَ بِهِ ، الزَاهِدِينَ فِيمَا يَفْنَى مِنَ الْمَالِ وَالشَّرَفِ ، بِمَا يُعَجِّلُهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ شَرَفِ التَّقْوَى وَهَيْبَةِ الْخَلْقِ لَهُمْ فِي الظَّاهِرِ ، وَمِنْ حِلَاوَةِ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ فِي الْبَاطِنِ .

وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عَمِلَ صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ ، وهذه الحياة الطيبة لم يُدَقِّقْها الملوكُ في الدُّنْيَا وَلَا أَهْلُ الرِّيَاسَاتِ وَالْحَرَصِ عَلَى الشَّرَفِ ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدَهَمَ: لَوْ يَعْلَمُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ = لَجَالِدُونَا عَلَيْهِ بِالسَّيُوفِ .

ومن رزقه الله ذلك اشتغل به عن طلبِ الشَّرَفِ الزَّائِلِ والرِّيَاسَةِ الْفَانِيَةِ .

قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] .

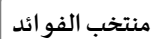
وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] .

وفي بعض الآثار: يقول الله ﷻ: «أَنَا الْعَزِيزُ؛ فَمَنْ أَرَادَ الْعِزَّ فَلْيُطِيعِ الْعَزِيزَ» ، فَمَنْ أَرَادَ عِزَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَشَرَفَهُمَا فَعَلِيهِ بِالتَّقْوَى .

وكان حجاجُ بْنُ أَرْطَاةَ يَقُولُ: قَتَلَنِي حُبُّ الشَّرَفِ ، فَقَالَ لَهُ سَوَّازٌ: لَوْ اتَّقَيْتَ اللَّهَ شَرُفْتَ .

وفي هذا المعنى يقول القائل :

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمُ ❁ وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالسَّقَمُ
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِصَةٌ ❁ إِذَا حَقَّقَ التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمَ



Σ 2 Λ

قال صالح الناجي: الطاعة إمرة والمطيع لله أمير مؤمَّر على الأمراء، ألا ترى هيئته في صدورهم، إن قال قبلوا، وإن أمر أطاعوا.

ثم قال صالح: يحق لمن أحسن خدمتك ومننت عليه بمحببتك أن تُذلَّ له الجبابة حتى يهابوه، لهيئته في صدورهم من هيبتك في قلبه، وكلُّ الخير من عندك لأوليائك.

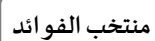
وقال بعض السلف الصالح: مَنْ أَسْعَدُ بالطاعة مِنْ مُطِيع؟ أَلَا وَكُلُّ الْخَيْرِ فِي الطَّاعَةِ، أَلَا وَإِنَّ الْمُطِيعَ لِلَّهِ مَلِكٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقال ذو النون: مَنْ أَكْرَمُ وَأَعَزُّ مِمَّنْ انْقَطَعَ إِلَى مَنْ مَلَكَ الْأَشْيَاءَ بِيَدِهِ؟!

دَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَمِيرُ الْبَصْرَةِ عَلَى حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ فَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ
يَسْأَلُهُ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا سَلَمَةَ، مَا لِي كُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ ارْتَعَدْتُ فَرَقًا مِنْكَ؟ فَقَالَ:
إِنَّ الْعَالِمَ إِذَا أَرَادَ بَعْلَمَهُ وَجَهَ اللَّهِ خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَكْتَنِزَ بِهِ الْكُنُوزَ
خَافَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وَمِنْ هَذَا قَوْلُ بَعْضِهِمْ: عَلَى قَدْرِ هَيْبَتِكَ لِلَّهِ يَهَابُكَ الْخَلْقُ، وَعَلَى قَدْرِ
مَحَبَّتِكَ لِلَّهِ يُحِبُّكَ الْخَلْقُ، وَعَلَى قَدْرِ اشْتِغَالِكَ بِاللَّهِ يَشْتَغِلُ الْخَلْقُ بِأَشْغَالِكَ.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَوْمًا يَمْشِي وَوَرَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ أَكْبَارِ الْمُهَاجِرِينَ،
فَالْتَفَتَ فَرَأَاهُمْ فَخَرُوا عَلَى رُكْبِهِمْ هَيْبَةً لَهُ، فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ
أَنِّي أَخَوْفُ لَكَ مِنْهُمْ لِي.



۴۳۰

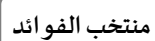
وكان العُمريُّ الزاهدُ قد خرجَ إلى الكوفةِ إلى الرشيدِ ليعظهَ وينهاه ؛ فوقعَ الرعبُ في عسكرِ الرشيدِ لما سَمِعوا بنزوله ، حتى لو نَزَلَ بهم عدوٌّ مائةُ ألفِ نفسٍ لما زَادُوا عَلَى ذَلِكَ .

وكان الحسنُ لَا يستطيعُ أحدٌ أن يسألهُ هَيِّئَةً لَهُ ، وكان خواصُّ أصحابهِ يجتمعونَ ويطلبُ بعضهم من بعضٍ أن يسألهُ عن المسألةِ ، فَإِذَا حَضَرُوا مَجْلِسَهُ لَمْ يَجْتَرُوا عَلَى سؤَالِهِ ، حتى رُبَمَا مَكثُوا عَلَى ذَلِكَ سَنَةً كَامِلَةً هَيِّئَةً لَهُ .

وكَذَلِكَ كَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ رحمته الله يُهَابُ أَنْ يُسَالَ ، حتى قَالَ فِيهِ الْقَائِلُ :
يَدْعُ الْجَوَابَ فَلَا يُرَاجِعُ هَيِّئَةً ❁ وَالسَّائِلُونَ نَوَاسِ الْأَذْقَانِ
نُورُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ الثُّقَى ❁ فَهُوَ الْمَهِيبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ
قَالَ بُدَيْلُ الْعُقَيْلِيِّ : مَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ وَجَهَ اللَّهِ تَعَالَى أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ
وَأَقْبَلَ بِقُلُوبِ الْعِبَادِ إِلَيْهِ ، وَمَنْ عَمَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ صَرَفَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنْهُ وَصَرَفَ
قُلُوبَ الْعِبَادِ عَنْهُ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ : إِذَا أَقْبَلَ الْعَبْدُ بِقَلْبِهِ عَلَى اللَّهِ أَقْبَلَ اللَّهُ بِقُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ .

وَقَالَ أَبُو يَزِيدَ الْبِسْطَامِيُّ : طَلَّقْتُ الدُّنْيَا ثَلَاثًا بَتَاتًا ، لَا رَجْعَةَ لِي فِيهَا ،
وَصَرْتُ إِلَى رَبِّي وَحْدِي ، فَتَادَيْتُهُ بِالْإِسْتِغَاثَةِ : إِلَهِي ، أَدْعُوكَ دُعَاءَ مَنْ لَمْ يَبَقَ



ᄃᄃᄃ

لَهُ غَيْرُكَ ، فَلَمَّا عَرَفَ صِدْقَ الدُّعَاءِ مِنْ قَلْبِي وَالْيَأْسَ مِنْ نَفْسِي كَانَ أَوَّلُ مَا وَرَدَ عَلَيَّ مِنْ إِجَابَةِ هَذَا الدُّعَاءِ أَنْ أَنْسَانِي نَفْسِي بِالْكُلِّيَّةِ ، وَنَصَبَ الْخَلَائِقَ بَيْنَ يَدَيَّ مَعَ إِعْرَاضِي عَنْهُمْ .

وَكَانَ يُزَارُ مِنَ الْبُلْدَانِ ، فَلَمَّا رَأَى اَزْدِحَامَ النَّاسِ عَلَيْهِ قَالَ :

وَالْتَنَيْتَنِي صِرْتُ شَيْئًا ❁ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَعَدُّ

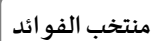
أَصْبَحْتُ لِلْكَلِّ مَوْلًى ❁ لِأَنْنِي لَكَ عَبْدٌ

وَفِي الْفُؤَادِ أُمُورٌ ❁ مَا تُسْتَطَاعُ تَعْدُّ

لَكِنْ كِتْمَانِ حَالِي ❁ أَحَقُّ بِي وَأَسَدُّ

كَتَبَ وَهَبُ بْنُ مُنَبِّهٍ إِلَى مَكْحُولٍ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّكَ أَصَبْتَ بِظَاهِرِ عِلْمِكَ عِنْدَ النَّاسِ شَرَفًا وَمَنْزَلَةً ، فَاطْلُبْ بِبَاطِنِ عِلْمِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً وَزُفْلَى ، وَاعْلَمْ أَنَّ إِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ تَمْنَعُ مِنَ الْآخَرَى .

وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّ الْعِلْمَ الظَّاهِرَ مِنْ تَعَلُّمِ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ ، وَالْفَتَاوَى وَالْقَصَصِ وَالْوَعْظِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ يَحْصُلُ بِهِ لِصَاحِبِهِ عِنْدَهُمْ مَنْزِلَةٌ وَشَرَفٌ ، وَالْعِلْمُ الْبَاطِنُ الْمَوْدَعُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ ، وَمَحَبَّتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ ، وَالْأَنْسَ بِهِ وَالشُّوقِ إِلَى لِقَائِهِ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ عَرَضِ الدُّنْيَا الْفَانِي ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى جَوْهَرِ الْآخِرَةِ الْبَاقِي = كُلُّ هَذَا يُوجِبُ لِصَاحِبِهِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً وَزُفْلَى ، وَإِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ تَمْنَعُ مِنَ الْآخَرَى .



३३३

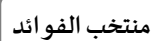
فمن وقف مع منزلته عند الخلق، وانشغل بما حصل له عندهم بعلمه الظاهر من شرف الدنيا، وكان همُّه حفظ هذه المنزلة عند الخلق ومداراتها وتزيينها والخوف من زوالها كان ذلك حظه من الله وانقطع به عنه، فهو كما قال بعضهم: ويل لمن كان حظه من الله الدنيا.

وكان سري السقطي يعجب مما يرى من علم الجنيد وحسن خطابه وسرعة جوابه فقال له يوماً - وقد سأله عن مسألة فأجاب وأصاب -: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك. فكان الجنيد لا يزال يبكي من هذه الكلمة.

ومن اشتغل بتربية منزلته عند الله بما ذكرنا من العلم الباطن وصل إلى الله، فاشتغل به عما سواه، وكان له في ذلك شغل عن طلب المنزلة عند الخلق، ومع هذا، فإن الله يعطيه المنزلة في قلوب الخلق والشرف عندهم، وإن كان لا يريد ذلك ولا يقف معه؛ بل يهرب منه أشد الهرب ويفر أشد الفرار؛ خشية أن يقطع الخلق عن الحق ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، أي: في قلوب عباده.

وحديث: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جَبْرِيلَ: إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيَحِبُّهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»، معروف، وهو مُخرَج في «الصحيح».

وبكُلِّ حالٍ: فطلب الآخرة يحصل معه شرف الدنيا، وإن لم يرده صاحبه

This image shows a single sheet of white paper with horizontal ruling lines. The lines are evenly spaced and run across the width of the page. There are no margins, text, or other markings on the paper.

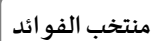
ولم يطلبه، وطلبُ شرف الدنيا يمنع شرف الآخرة ولا يجتمع معه، والسعيدُ من أثر الباقي على الفاني، كما في حديث أبي موسى، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَأَثَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى»، خرَّجه الإمام أحمد وغيره.

وما أحسن ما قال الشاعر أبو الفتح البستي:

أَمْرَانِ مُفْتَرِقَانِ لَسْتُ تَرَاهُمَا ❁ يَتَشَوَّفَانِ لَخُلْطَةٍ وَتَلَاقِ
طَلَبِ الْمَعَادِ مَعَ الرِّيَاسَةِ وَالْعُلَى ❁ فَدَعَ الَّذِي يَفْنَى لِمَا هُوَ بَاقٍ

وهذا آخر الكلام على حديث «ما ذئبان جائعان أرسلَا في غنمٍ بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»، لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي الحنبلي نزيل دمشق رضي الله عنه، ونفعنا والمسلمين بعلمه وبركته.





ᄃᄂᄃ